من أحاديث الإذاعة :(*)

بين الوحوش والبهـــائم !

للأســـتاذ علي الطنطاوي

أيها المستمعون الكرام . أنتقل بكم هذه العشية إلى بقعة في مصر ، جمعت فيها عجائب البلدان ، وغرائب الحيوان ، فوضع فيها البحر بحيتانه وتماسيحه ، وأفراسه وسباعه ، والبر بصحاريه وغاباته ، وأسوده وفهوده ، ووعوله وغزلانه ، وأقيمت بها الذرى المخضرة من لبنان تتفجر منها الينابيع وتتحدر السواقي ، وتغنى عليها البلابل والشحاريز ، ومدت فيها القفار الجرداء من الجزيرة تسعى فيها المها وتتسابق العير ، والأحراج الملتفة من الهند تمشي فيها الفيلة ، والثلوج المبسوطة من القطب تخطو عليها الدببة . وعاشت فيها الحيات والثعابين إلى جنب الحمام والعصافير ، وصحبت فيها المعزى الذئابُ ، والثعالب الدجاجُ ، والسباع البشر . وفيها (الجبلاية) هذا الجبل المسحور ، تدخل منه إلى مسارب منحوتة في الصخر ولا صخر ، وكهوف تتسلسل فيها العيون ولا عيون ، وقاعات في باطن الأرض كأنما أعدت لتكون مخادع للحب أو محاريب للتأمل ، وكأنما هي أحلام شاعر قد تحققت ، وأمنية حالم قد تجسمت ، وطرق ظاهرة وخفية ، تنتقلك في خطوات من حر الصيف إلى برد الشتاء ، ومن جلوات الطبيعة في أعراس الربيع ، إلى خلوات النفس في نشوات الرؤى ، تلك هي (حديقة الحيوانات) .

وهي بعد هذا كله معرض للانسان ، ترى فيه طباعَه وأزياءه ، وخلائقه ولغاتِه ، تسمع فيه أشتات الملاحظات ، وعجائب التعليقات ، تمشي مع الناس فتجد فيهم من يسير على هدى فيرى كل شيء ويقف عليه ، ويخرج وما فاته مشهد ، ولا ناله تعب ،

(*) كتب الحديث لمحطة الشرق الأدنى فسجله في مصر وأذاعته من يافا يومي (١٤) و (١٥) مايو .

وإما أن تغادروا بلادي . ثم ترفع كل الأدلة التي تفضح كذب هؤلاء الكذابين من المرتزقة إلى حكوماتهم ، وأن تبرئ ذمتها من دخيل لا يرعى أدباً ولا خلقاً ، ولا يعرف قدره ولا أقدار الناس !

إننا نطلب الحرية وسنطالها ، وسنكون أحراراً في بلادنا نسومها بالسياسة التي ترتضيها لأنفسنا . ونحن لن نرضى لأنفسنا إلا الإنصاف ، ننصف أنفسنا ، وننصف من يعاشرنا من الأجانب . ولكن إذا ظن الأجانب أن هذا الإنصاف الذي لم ينبغي أن يكون على ما تعودوه منذ خمس وستين سنة ، من امتهان المصريين ومن الغطرسة عليهم ، ومن بقائهم طبقة واحدة ترى أنها أنبل منا ، وأشرف منا ، وأحسن عقلا منا ، وأولى بثروتنا منا ، وأحرى بالامتياز من كل مصري يعيش على أرض مصر — فيومئذ سوف ننصفهم أيضاً ، ولكن بما نرضى به نحن غضبوا أو رضوا ، وضجوا أو سكتوا .

أما الدول التي تتنادى باسم الحرية ، والتي تنكر على مصر والسودان ، وعلى فلسطين ، وعلى العراق ، وعلى بلاد المغرب كلها — أن تكون أمماً حرة ، فلتفعل ما تشاء ، لأن هذه العرب لن تهادن إلا من يهادنها ، ولن تجامل إلا من يجاملها ، ولن تعاون إلا من يعاونها ، ولن تمد يدها إلا إلى من يمد لها يداً نقية من الغدر والفتك والنفاق .

الحرية حق طبيعي ، فنحن بالفوه ومدركوه شاءت الأمم أم أبت . والقوة الدافعة إلى طلب الحرية غريزة فطرية ، فنحن خاضعون لها حتى تحقق غايتها شاءت هذه الأمم أم أبت . والإنصاف طبيعة فينا ، فنحن سننصف أنفسنا وننصف من يعاشرنا ، رضي بذلك من رضي وكرهه من كره . وهذا كله شيء ليس لنا فيه خيار ، لأننا كدنا نموت ونريد أن نحيا . ونحن نتعلق في حياتنا هذه كالجائع الشرف على الهلاك حين يتعلق بكسرة خبز ورشفة ماء ، هي الحرية ، وأما هم فيريدون أن يتأنقوا ويتفلسفوا ويتفاصحوا باسم الحرية التي يريدون بها حريتهم هم مقرونة بالاعتداء على سواهم من الشعوب المتعلقة بالحرية أمثالنا نحن .

وسوف يأتي على الناس يوم وتظهر العرب ، وتعلم هذه الأمم كيف تكون الحرية ، ثم تقودها إلى هذه الحرية مرغمة كما يقاد الجمل

محمود محمد شاكر

ومن يدع اللوحات الدالة على الطرق ، والحراس المرشدين إلى المسالك ؟ ويسير على غير الطريق ، فيدور دوران السانية ، فيتعب نفسه ، ولا يبصر شيئاً ، ولا يخرج بفائدة ، فكأنه الرجل الضال الذي يترك هَدْيَ الأنبياء ، وحكمة الحكماء ، ويتبع عقله الأعوج وهواه ، فلا يسعد في دنياه ، ولا يسلم في أخراه ، وتمر على حراس الحيوانات فتجدهم قد فرقت بينهم الحظوظ إذ ساوت بينهم الوظيفة ، لحارس القرد والفيل والدب الأسمر ، يلعب حيوانه فيقف عليه الناس ، وتلقى عليه القروش ، فيتسلى ويغتني ، وحارس الخنزير لا يلتفت إليه أحد .

زرت الحديقة ، ومشيت مع الناس أنظر كما ينظرون إلى أنواع الحيوان ، وأرى فيهم أمثالها ، ولكنها قد تلففت بالثياب ، ففيهم أسد له بطشته وإن لم تكن له لبدته ، وفيهم ثعلب له حيلته وإن لم تكن له فروته ، ودب له غلظته ، وحمار له غفلته ، وطاووس له خَيْلَتُه[1] وذئب له عدوته ، حتى وقفت على الأسد وهو يدور في قفصه متألماً في صمت ، صابراً في استكبار ، كأنه النابغة من الناس حبسوه في (قفص) من وظيفة صغيرة ، أو إفلاس شامل ، أو قرية منقطعة ، يلحظ الناس بطرف عينه يقول : آه ، لو كنت طليقاً في البادية يا أيها الـ .. بشر ! ورأيت الحارس يخرجه إلى متنزّهه : إلى القفص الضيق ، بعد القفر الواسع ، والفضاء الرحيب ، يذله بعصاه ، ويستطيل عليه بسوطه ، كما يستطيل الفرنسي اللئيم على المغربي الكريم ، ويذله بسيف العدوان وقوة السلطان ، وسمعته يزأر مقيداً ، كما يصيح المصلح في أمة أفسدها التقليد ، فلا يفزع من زئيره إلا الصبية الصغار ، ولو زأر عند العرين لخلع هذي القلوب وزلزلها حتى قفزت من حناجر أصحابها .

ووقفت على الفيل وقد تواضع ، حتى غرّ الناس منه لينه فنسوا شدته ، وهان على أحدهم حتى أركبه صبيّته ، وصرّفه الفيّال واتخذه لعبته ، كما يطيع الرجل امرأته ، فيضيع رجولته ، ويفقد منزلته .

ووقفت على دبين متجاورين ، أبيض كبير ، قد اتخذوا له في قفصه من الجبس كهيئة الجليد ، ووجهوا مسكنه إلى الشمال حتى يظل بارداً ، لا تدخله الشمس ، فيظنه موطنه ، وموطنه هناك على حدود القطب الشمالي .. ولكنهم لم يخدعوه ، إنه ينظر فيرى قوماً لا يشبهون قومه ، إذ لم تستعبدهم فئة قليلة منهم ولم تظلمهم باسم العدل ، ولم تحرمهم باسم حرية الكلام ، ولم تملك دونهم كل شيء وتستمتع بكل متعة ، بشريعة ماركس ودين لينين !

ودب أسمر صغير ...

يدور الأبيض النهار كله ، غضبان أسفاً لا يهدأ ولا يستريح فلا يصل إلى شيء ، ويلعب الأسمر بكرة من الحديد ، ويراوغ الحارس ، ويضحك النظارة ، كلاهما سجين ولكن هذا ينسى سجنه ، وذاك يذكره أبداً ، كالناس منهم من يذكر المصيبة ، ويدنيها من خياله ، فيراها أبداً أمامه ، ومنهم من (يخادع نفسه في الحقائق) فتصفو له الحياة .

والأبيض على جمال شكله ونعومة جلده ، ثقيل سمج ، والأسمر على قبحه لطيف خفيف ، لأن الجمال جمال الروح ، لا جمال الجسد ، فرب حسناء تنبو عنها القلوب ، وغير ذات حسن تهواها الأفئدة ، وتعلق بها العيون .

ووقفت على القردة ، وهي تعيش العمر كله مجلسَ لهو ولعب تقلد كما يقلد (قردة) البشر ، ولكنها تقلد فيما ينفعها وهؤلاء يقلدون فيما يؤذيهم ، وعلى الببغاء وهي تردد ما يقال بلا فهم ، كهؤلاء الذين يعيدون علينا كل ما يقول الغربيون ، وعلى الحيات وهنّ ناعمات الملمس ، ناقعات السم ، كالصديق المخادع ، يُخاتلك ليخاتلك ، ويسقيك من قوله العسل وفيه من قبح مقصده الحنظل

ومررت على فئات الحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها ، ومطاعمها ومشاربها ، من كل سائر أو سابح أو طائر ، مما يحارب بمخلبه ونابه ، كالشجاع الأبي ، وما يدافع بسمّه كالنمام المفسد ، وما يقاتل بثقل جسمه كثقال الروح من الناس والقنفذ وسلاحه شوكه كسليط اللسان ، بذيء المنطق ، والسلحفاة وسلاحها درعها كالمنطوي على نفسه ، المعتصم بصمته ، والطاووس وهو كالمرأة سلاحه جماله وحسن منظره ... والذي يعيش في الماء نظيفاً مطهراً كالسمك ، والذي يتنسل في اليوم عشر مرات كالدب ، والذي لا يطيب له العيش إلا في الأوساخ والقاذورات كالخنزير ، يلغ فيها

(١) الخيلة : الخيلاء والكبر .

كما يلغ المغتاب فى أعراض الناس ، وينغمس انغماس الغاسق فى حمأة الفجور ، وسبع البحر وهو أعلاها صوتاً ، وأضخمها زئيراً وأقلها غناء ، وأضعفها قوة ، كالجبان الفخور ، والجاهل المدعى ، وما ينحط على فريسته من علٍ كالنسر ، وما يأخذها قوة واقتداراً فى وضح النهار كالأسد ، ومايسلك إليها المسالك المظلمة ، ويتسلل صامتاً خلال الحجارة وفى أصول الجدران كالحيات ، وعلى النزلان والمصافير ، وهى أبهى الحيوان فلا يقف عليها أحد لكثرتها ويقفون على حيوان قبيح لأنه نادر ، لأن قيمة الشىء بندرته لا بمنفعته ، ولولا ذلك لما كان الهواء أرخص شىء ، والألماس أغلاه .

... حتى مررت على طائفة من الحمير محشورة فى زريبة ، طائفة من حمير الشارع تأكل وتهز أذنابها ، تتلفت ترقب العصا تنهال عليها كما يرقب الذليل المهانة ، ويعجب إن افتقدها ، فلما لم ترها وعرفت أنها فى أمان منها بطرت بطر حديث النعمة ، وترفعت ترفع اللئيم يسود فى غفلة من الدهر ، ونسيت ما كانت فيه كما ينسى غنىّ الحرب عهد الفقر ، ويأنف من السيارة الفورد وكان لا يجد عربة الكارّو ، ويدخل أولاده المدارس الأجنبية وكان لا يعرف طريق الكتاب

يستخشن الخزّ حين يلبسه وكان يبرى بظفره القـــلم

وفكرت هذه الحمير وقدرت ، فانتهى بها التفكير إلى أنها لم تعد حميراً وإنما صارت بشراً ، أليس فى البشر (حمير) ، فلماذا لا يكون فى الحمير بشر ؟

ومرّ حمار مسكين ، يجر عربة مثقلة بالحشيش لطعام حيوانات الحديقة فنظر إليها ، فلما رآها ... أجفل وارتدّ ...

ما هذا ؟ حمير مثله ؟ إنه يفهم أن يكون فى الحديقة نسور وصقور ، وفهود ونمور ، وزرافات ونعام ، وأن يكون فيها حمير الوحش لأنها غريبة المنظر ، بعيدة الموطن ، نادرة الوجود ، أما أن يكون فيها حمير مثله ، تسمّن وتخدم ولا تعمل ، فهذا ما لا يفهمه أبداً .

ووقف ونهق لها يحيّيها ، فترفعت عنه ، وتألمت من تطاوله عليها ، ومدّت شفاهها الرقيقة ، وضمت آذانها القصيرة ، ولوحت بأذنابها استنكاراً واستكباراً ، ونسيت أصلها وتجاهلت أخاها ، كما يفعل الموظف الصغير الذى يعيش بمال الأمة إذا وقف عليه أحد أبناء الأمة يسأل حاجة ، أنه يظنه يسأل صدقة ، أو يطلب إحساناً ، أو الشرطى حين يلقى البائع السيار من أهل بلده ، وترجمان الستشار حين كان يقابل واحداً من بنى قومه ...

فلما رأى ذلك منها ، بصق ومشى يلعن الحظ الذى جعل (الحمير ...) سادة ، وأقام (الناس) لهم خدما وخولا وبكى على خلائق الجنس (الحمارى) ، لقد ضاعت تلك الخلائق ، وهبطنا حتى صرنا مثل بنى آدم ، لانعرف أقدار أنفسنا ولا أقدار إخواننا.

***

وجعلت أعاود الحديقة ، وأكرر زيارتها ، فأرى هذه الحمير محشورة فى الزريبة ، تأكل وتشرب ، وتتعجب لماذا لا يقف عليها أحد ! إنها لا تلعب لعب القردة ، ولا تغنى غناء البلابل ، ولا تملك هيبة السبع ، ولا ضخامة الفيل ، ولكنّ لها فنّها وجمالها ، وما الفرق بينها وبينها ، ألا يقرأ الناس لأدعياء الرمزية ولصفاء الأدب ، ولصوص البيان ، كما يقرأون لأئمة البلاغة ، وملوك الكلام ؟ ولكن هذه (الفلسفة) لم تقنع أحداً فظل الناس معرضين عنها ، لا يحفلون بها . وماذا يبتغون منها ؟ وهل قلّت الحمير حتى ما تشاهد إلا بقرش صاغ ؟ إن الحمار يبقى حماراً ولو وضعته فى القصور ، وأركبته السيارات ، وكسوته الحرير ، وأطعمته الفستق المقشر ...

حتى كان أمس فرأيت القائمين على الحديقة ، قد عزموا على إخراج هذه الحمير منها ، كى يوفروا على أنفسهم ثمن طعامها ، وينتفعوا بجهدها وعملها ، ويجعلوا الحديقة بإبعادها عنها...

فعلمت أن هذه آخرة كل (حمار) يتجاوز قدره ، وينسى أصله ، فليعتبر سائر (الحمير) !

***

ياسيدات وياسادة . العفو إذا لم أجد ما أحدثكم به إلا حديث الوحوش والحمير ، فالحديث عنها ، أكثر فائدة ، وأسلم عاقبة من أحاديث الناس .

والسلام عليكم ورحمة الله .

على الطنطاوى